انطاكية ومشاهدها الفاتنة

... ولما استقرَّ بنا النوى ، والقينا عصا التسيار في مدينة انطاكية عاصمة سوريا القديمة ، وانتظم شملنا في تلك الديار ، خرجنا ذات يوم الى شلالات « دفنه » لنستمتع بمشاهدها الرائعة عند طلوع الفجر

وغدونا مع الطير فاذا جوٌّ بارد ينفح الوجه ويسبك انك في اواسط يوليو ، ومضت السيارة بنا حتى بلغنا الشلالات فاذا ناحية كأحسن ما نعرف من المصايف موقعاً ، يشرف عليها الجبل وتجري من تحتها الانهار ، ويتردد فيها هواء خفيف ولكنهُ ممتلىء حياة ونشاطاً ، فاذا انت اقدر ما تكون على الحركة ، واذا انت اقدر ما تكون على التفكير واشوق ما تكون اليهِ

حيث الضحى متساكب كطلى بكف مشعشع
والجو غلاَّء نما لات البروق المعمع
والريح تحضن آخر النسمات حضن المرضع
وتقصف الاغصان شبه تقصف في اضلعي

وشلالات دفنه نزهة من النزه عند من يشوقهُ جمال الطبيعة ، فالمياه هنالك تنحدر من قمم الجبال مارة بين الصخور الدهرية ، والهيا كل الحجرية التي لم تستطع عناصر السماء ان تمحو نتأة من رؤوسها في جيل من الاجيال

ومضت ردحة من الزمن وانا مستلق على العشب المتعقد المبسوط انظر في ذهول الى تلك الآكام الصخرية الراقدة في سفح جبل متشامخ تهض متفرعاً متسلسلاً . ولكني لم البث ان استيقظت على اغاني الطير فوق الاغصان البعيدة ، فاستويت جالساً وعند ذلك بصرت بنفسي بين مياه تنساب من هنا وهناك بين الصخور ، تحيط بي آكام شاهقة تطاول الفضاء ، وانا في وادٍ يجري شرقاً وغرباً ، ممتلئاً نوراً ، نور الصباح الزاهر ومشرق الشمس الضاحية ، ثم لاحت لي وديان اخرى عظيمة كالحها ، وراء المياه المنسابة المتدفقة ، وفي منحدر هناك وجدت طريقاً ضيقاً تتساقط عنده رشاشات الماء ، فعدلت اليهِ ومضيت فيهِ وبلغت بعده الى آكام اخرى معتزلة صغيرة ، فتسلقتها واذا بي في سفح منحدر فرعت عنده الاشجار ، وطالت الدوح ، وأينعت الاغصان ، فهبطت مولياً وجهي شطر الوادي ، اذ رأيتهُ قد تتشح على مراع ناضرة ، وقد وقعت الشمس المشرقة عن مواجهة الوادي ، وتبددت في جوف الفضاء اغنيات

النظير . يا لله ما أروع وما أبدع هذه المشاهد ! فالآكام والوديان مرعى النضر ازهر ، وريان منتعش ، تشرق فيه ازهار حلوة تدل على مهارة في الزرع ، وحذق غريب في الحرث والحصد ، وحول هذه الاودية اسوار عالية من الصخور ، وغدير تنساب مياهه في قطع المرعى واجزاء الحقل ، وفي الربى العالية تمرح الماشية وترعى على مقربة من اعطان لها ومرابط .

وكنت كيفما سرت والى اتجهت ارى جماعة من النساء والرجال وجلهم من سكان حلب وغيرها قصدوا الى هنا للاصطياف جلوساً وجنوحاً على اكداس من العشب كانهم يتقيلون في ابعد حدود المرعى وعلى مقربة منهم طائفة من اطفال الفلاحين وقوفاً متكاسلين ينتظرون البقشيش . ويمشون بعضهم في أثر بعض مشية رفيقة بطيئة وفي كل خطوة يتثاءبون كقوم اقاموا الليل سهراً وسحراً

وقد قضيت وضحي النهار كله جرياً ووثباً في احضان تلك الطبيعة المشرقة الضاحكة ادور في جلال الربى والجبال ، وانقل عيني بين محاسن الكون ومباهيه ، واتأمل حمرة الشفق المترامية فوق الربى البعيدة ، والمراعي الخضراء مرخياً العنان لخواطري ، مسترسلاً في تفكيري حتى اخذ الهواء يبرد والظلام يعم الكون . وعدنا بعد ذلك الى المدينة وكانت اشعة القمر الحلوة قد بدأت متلألئة في جلال ووقار وضياؤه المزهر الباهر قد غمر الربى والوديان

وبعد ان صرفت اسبوعاً كاملاً في انطاكية قمت برحلة الى « بتياس » فركبت سيارة أقلتني اليها بعد ان اجتازت في طريقها سهولاً منبسطة لا ينحط النظر على مشهد أروع منها ولا أبدع وبعد ان تسلقت جبالاً خضراء مزهرة ، يداعبها النسيم المعطر بشذى الرياحين ، تمتد على جانبيها سهول مترامية تتخللها جداول بهية المنظر

وتقوم بتياس على مرتفع الف وخمسمائة متر من البحر ، وترقد في ظل خمائل فاتنة على خرير الجداول المنسابة بين الربى والبساتين ، تكتنفها جبال لا تكاد العين تتبين قممها لشموخها ، وأمامها واد ممتد تقوم على اكتافه من الناحية المقابلة قرية « حاجي جبلي » مترامية بين غدران منسابة من هنا وهناك ، وقد استغرقت الطريق من انطاكية الى بتياس ساعة من الزمن

وفي بتياس فندق جميل الموقع . وقد رأيته غاصاً بالمصطافين وجلهم من اهالي حلب الشهباء ، وفيها مقاه بديعة تشرف على الوديان والسهول ، وترقد في ظل اشجار ساجية ملتفة . وكان بين اصدقائي نفر من الادباء الظرفاء يميلون الى الغناء ويتعشقون قصائد شوقي التي ترنم بها الاستاذ عبد الوهاب ، فطلبنا الى صاحب المقهى — وهو ارمني — ان يسمعنا شيئاً من اغاني عبد الوهاب ففعل ، وكذلك طربنا في رؤوس الجبال وفي القرى الارمنية النائية بشعر شوقي ، وسمعنا عبد الوهاب ينشد على لسان المجنون « تلفتت ظبية الوادي . . » وسمعناه ينشد كذلك على لسان انطونيو « الحياة الحب والحب الحياة » وهكذا قضينا يومنا على خير ما يكون

وقد انتهينا الى ينبوع في اعلى الاكمة المقابلة يتفجر من شق صخرة عظيمة ، وشاهدنا

في مكان معتزل تصبي الى يمين هذا الينبوع حيث النرجس البري ، والاقحوان المفراح ، بقايا كنيسة قديمة يرجع بناؤها الى عهد الرومانيين ، ولما اخذت الشمس تهوي في اعماق المغرب غادرنا بتياس الى انطاكية

ولما كان العد قنا الى قرية « خدرباك » وكان الصباح الزاهي ينشر في الكون ، ويبسط كملائكة اجنحته الضبابية ، فبلغناها في ساعة ونصف ، وهي قرية جميلة قائمة على هضبة تمتد امتداداً مستطيلاً حتى تعترضها هضبة ثانية تقوم على اكتافها قرية « يوغون اولوق » وقد نزلنا عند ينبوع مياه غزيرة في منخفض من الارض عند مدخل خدرباك ، وهناك توسدنا العشب الاخضر المزهر الذي يحف بجوانب الينبوع ، وأخذنا نرتشف المياه العذبة الباردة ثم اكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً ، وعند الاصيل غادرنا خدرباك في ركب حافل الى السويدية فبلغناها في مدى عشرين دقيقة . والسويدية قرية كبيرة تحتوي على مزارع واسعة فيها الذ انواع الفاكهة ، وهي ممتازة بتربية دود القز وفيها معامل كبرى للحرير ، وبعد ان اقمنا فيها برهة قصيرة انحدرنا الى شاطىء البحر وجلسنا في مقهى صغير الى جانب مزار « الخضر » وهو مزار قديم يحج اليه طوائف الناس من القرى النائية وينذرون له النذور ويقدمون القرابين . واستطعنا هناك ان نشهد الشمس تسحب ذيولها الشفافة وراء الافق الارجواني منصتين الى هدير الامواج المتلاطمة الصخابة الداوية ، وهي تغسل اقدام « الجبل الاقرع » المشرف على سلسلة منتظمة من الاكمات الرمادية اللون

وفي المساء عدنا الى انطاكية مجتازين تلك المزارع الواسعة والحقائل الجميلة التي يتأرج منها عرف طيب كعرف اللبان

وبعد هدنة قصيرة الامد قمت في نفر من الاهل الى « البايلا » وهي مزرعة بديعة تشرف على هضبات عالية تشرف على بسيط من الارض مكسو بالاعشاب السندسية ، وفيها ينبوع ماء عذب يتبجس من الصخر ، وقد استقبلنا في خمائل تلك المزرعة نفر من المعارف ، وبعد ان استرحنا طفنا بين المزارع النضرة وفي بهرة الحقول الصامتة الساكنة ، ثم عدنا فلتهم صنوف الطعام اللذيذ ، ونحن جلوس الى مائدة مستطيلة تحت الاشجار الساجية

وعند الاصيل غادرنا « البايلا » الى « الاوردو » فاجتزنا في طريقنا السحرية غابات الصنوبر ، واحراج السرو والشربين يفوح منها شذى طيب يمتزج برائحة الصخور والتراب منصتين الى زقزقة العصافير ورجع امراب القمري والحجال وهي تأوي الى اعشاشها وراء مكسر الصخور

وقد قضينا ليلتنا في « الاوردو » فوق سطح منزل من المنازل الممتازة لقوم كرام ، وشهدنا القمر بازغاً من وراء الجبال مشرقاً متهللاً ، هذا ونسمات الليل الفاترة العليلة تهب حاملة من مجامير الحقول والاوديةرا ئحة عطرية زكية ، وشاهدنا في الصباح مراعي « الاوردو »

الخصيبة تنساب اليها الماشية وقد اخذ الراعي يترنم بمزماره الشجي ويرتل اناشيد قروية مطربة. على ان السيد « نوري » أبى الا ان نواصل السير في الطريق الجبلية المؤدية الى اللاذقية فسعدت على مضض ؛ وما كادت السيارة تبتعد بنا قليلاً حتى رأيت ان الحق في جانبه ؛ وان جرلتنا في هذه الطريق الجبلية جولة رائعة ، فقد شاهدنا محاسن فاتنة ، لا تقع العين على اروع منها ولا أفتن ؛ فهذه مناظر الربى والآكام المزهرة ، والوديان السحيقة المخضرة ، وغابات الصنوبر وكروم الزيتون ، وحقول التوت ، وزرقة البحر الصافية التي تتراءى من بعيد ، والمغاور الصغيرة المنبثقة من اصلاب الصخور ؛ كل هذه المفاتن والمباهج كانت تبدو لنا في لمحة عين فلتتفت بمتعة ويسرة مذهولين مأخوذين كأننا في حلم رائع جميل . على اننا ما عتمنا ان عدنا الى الاوردو لنجتمع بافراد عائلتنا الذين صحبونا في رحلتنا ونتناول معهم طعام الغداء

وعند الاصيل اخذنا نقسم الروابي النضرة القائمة قبالة الاوردو ونستمتع بجمال الطبيعة الفاتنة ؛ ثم ركبنا سيارة اقلتنا الى كسب بعد ان اجتزنا طريقاً وعرة تكتنفها من الجانبين آكام صخرية ؛ وقد لبثت السيارة نحو اربعين دقيقة تارة تنحدر وطوراً ترتفع نافذة من بين الربى والجبال ، متزلجة مع المنحدرات هاوية ، وتقوم قرية كسب على مرتفع الفي متر من البحر وهي ابدع قرى تلك الضاحية وأنظم مبانيها بلا منازع

وعند وصولنا الى كسب ترجلنا واخذنا نمشي في طرق ضيقة بين المزارع ، حتى وصلنا الى مرتفع يشرف على القمرية باكملها ، تنهض حوله كنيسة اثرية جميلة لاخوة القبر المقدس ، وقد طلبنا ارجاء هذه الكنيسة صحبة قس اصبنا فيه رجلاً حديثاً ظريف المحاضرة له مشاركة في كثير من العلوم والآداب ؛ وشهدنا ونحن نطوف بناء جميلاً لمدرسة توشك ان تتم ، واهل كسب كلهم من الارمن وهم اقوياء متعلمون . ولهم بعثات علمية يوفدونها كل عام الى بيروت وعينتاب ؛ وفلاحوها مهرة نشيطون ، وهم يعيشون كسائر اهل القرى المجاورة عيشة سهلة دثبة ، لهم كل احوال السعادة والفضيلة كما انهم نحن من هاتين الكلمتين ، فهم يعملون ولكنهم لا يجهدون في العمل على انفسهم ولا يتعسفون ، عندهم طعامهم ولباسهم على قدر الحاجة وجهد الطاقة ، لهم ايام وفصول فيها يستريحون وفيها يتعبون

وقد دار بيني وبين قس الكنيسة حديث ابديت فيه دهشتي من اعتزال هذه الطائفة الكبيرة من الناس في هذا المعتزل القصي البعيد عن العالم المعذب فقال : هذه المحاسن الفاتنة ، والمباهي الساحرة ، هذه الازاهر الجميلة ، هذه النرجسات ، وتلك الزنبقات ، والسماء وسحائبها الوضاءة ، ومغارب الشمس ومطالع الغزالة ، ومتألق النجوم ، ودري الكواكب ، لها يسحر ويفتن . فهل بالله رأيت عيشاً اطيب من هذا العيش ؟ ماذا في المدن الكبرى التي منها اتيت

جسر روماني على نهر العاصي عند مدخل انطاكية

بقايا من قناة الامبراطور الروماني تراجان وكانت تجري عليها مياه دفنه الى انطاكية

امام صفحة ٨٨

مقتطف يونيو ١٩٣٢

ناووس روماني مخلد في دار الحكومة بالقاهرة

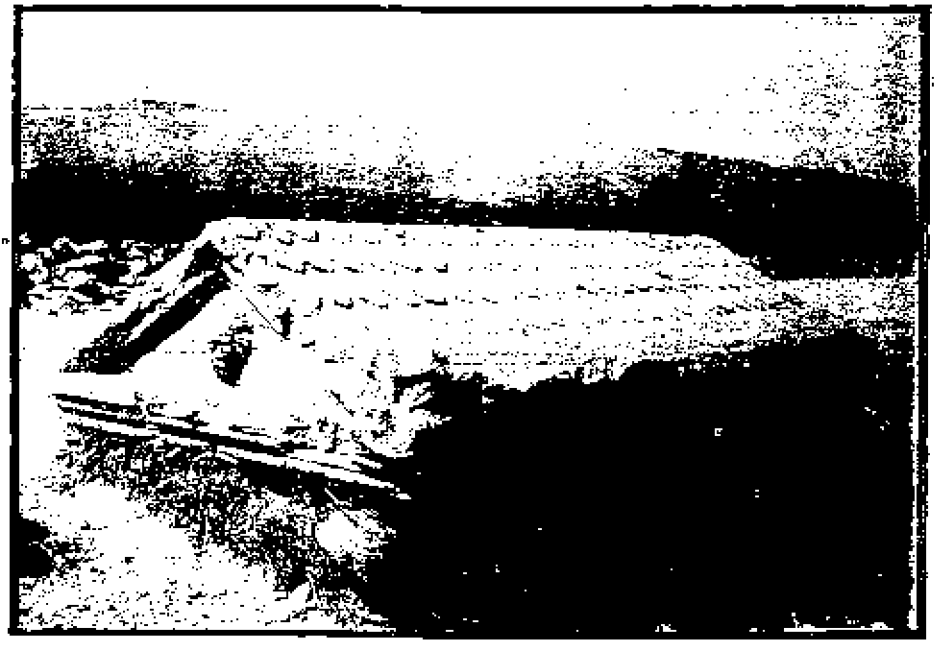

غطاء الناووس قبل نقله الى دار الحكومة

غير الضجيج والجلبة والزحام والتناحر من اجل الحياة ومطالب العيش . ان الناس هنا يرون ان قريتهم هذه الهادئة الجميلة هي العالم بأسره ، أما الانسانية التي تعيش وراء هذه الجبال فهي عندهم خرافة !

لقد صدق والله هذا الشيخ ، هنا في بهرة الحقول الصامتة ، وفي وسط الخمائل النضرة ، وفي احضان الطبيعة المشرقة الضاحكة يحلو للمرء ان يعيش .

عدت اسأل الشيخ : وكيف تقضي نهارك ؟

اجاب : « في رحلات هنا وهناك ، وسط الطبيعة الضاحكة ، حتى اذا عدت ادراجي عند المغيب منحدراً مقالصي المتحافية النائية اروح اقص على زميلي القس . . . حديث يومي وخبري ويتلو علي هو وقائع نهاره ونبأه ، ويحدثني كيف ان يماماتنا نقفت البيض تحت اجنحتها ، وكم أعطت العنزة من لبانها ، وكم من السكات اصطادت حبائله ، ثم يأخذني فيريني ما جمع من اوراق الطحلبات وغصانها ، وما ركم من غثاء الاشجار ولحائها ، يختزنه قبل وقدة الشتاء وقرسة الزمهرير ، وما اقتطف من اب الغابة وفاكهتها ، وما شاك اصابعه الدامية من إبرها واشواكها ، وما مد ولوى من دوالي الكروم وعواسج الثلاب ، فوق جوانب المغارة وجدرانها ، وما امسك من العصافير يخادعها بالحبوب ومداعبتها ، وانتباه الجائعة يلتقطها الحب بيده ويؤكلها ، لان كل شركاتنا في عزلتنا غناء الجبل وابائها ، وعصافير الغابة واطيارها ، تتسابق عند رؤيتنا ، وتجتمع لمطلعنا ، وتطير على صوتنا ومشيتنا ، ونحن نأكل ما نصيبه في نهارنا ، يحلو لنا الالبان وتوافه الطعام وتطيب ، وتتهم بعدها غرائب الفاكهة ونوادر الثمر ، وحيناً نشرب ماءها ، ونوثر عليها عصيرها ، ونختزن للفصل المحتضر ما تجفف الشمس ويحفظ الزمن ، وينوه احدنا بفكرة اخيه ويصفق لمكره ، ويظفر لامليحته ، تقتل المساء المتطاول في النادرة ، والضحكة الخلوة في اعقاب الضحكة ، وحيناً نشهد القمر في صميم الليل بازغاً متهللاً ، ساطعاً على صفحة الارض منبسطاً ، فنسجد فوق الصخر الأصم خاشعين ضارعين ، نستقبل مطلع ذلك النور ، ونتألق من ذلك الضياء ، لنشكر له اليوم الذي اعطانا ، ونحمد له الليلة التي وهبنا ، ونسأله الشمس تطلع علينا بالغد الهني ، والايام الحلوة الرغيدة

« كذلك نختم يومنا ، نمضي في سلام نتهجع في رفق ، حتى يمدح صوت الذي يصحو قبل رفيقه مع نشائد القنبرة ، ويمتزج باغاني البلبل ، فيطرب اذن صاحبه ، ويوقظه من عجمته »

مددت يدي للقس الشيخ وهززت يده بحرارة واعجاب ، وعدت مع اهلي واصدقائي الى انطاكية مارين بين المزارع الخضراء موقنين ان عشاق الاصطياف سيكتشفون بعد قليل من الزمن في هذا الفردوس الارضي خير مصطاف . . .

نقولا شكري